

لا ضمانة لدستور ديموقراطي سوى الانتفاضة الشعبية

ف. لينين

... هناك حديث عن الحرية، وعن التمثيل الشعبى، كما يخطب البعض عن الجمعية التأسيسية، غير ان مالا يرونه على الدوام فى كل ساعة بل وفى كل دقيقة، انه بدون ضمانات جادة لكل هذه الاشياء الجيدة فانها تبقى مجرد جمل خاوية. اما الضمانة الجادة فلا يمكن ان تأتينا بها الا الانتفاضة الشعبية الظاهرة، الا بالهيمنة التامة للبروليتاريا والفلاحين المسلحين على ممثلى السلطة القيصريية، الذين، تراجعوا خطوة للوراء، ولكنهم ابعد من ان يكونوا قد استسلموا للشعب، وابتعد من ان يكونوا قد اطيح بهم بواسطة الشعب. والى ان يتحقق هذا الهدف لا يمكن ان تكون هناك حرية حقيقية، ولا تمثيل شعبى حقيقى، ولا جمعية تأسيسية حقيقية لها سلطة ان تقيم نظاما جديدا فى روسيا.

ما هو الدستور؟ صحيفة من الورق سطرت عليها حقوق الشعب. ولكن ما هو الضمان الذى لدينا بأن هذه الحقوق سيترف بها فعلا؟ يكمن الضمان فى قوة طبقات الشعب التى باتت واعية بهذه الحقوق، بعد ان استطاعت كسبها. دعونا لانسمح اذن بأن تضلنا الكلمات - التى تليق بثرائى الديموقراطية البورجوازية فحسب - دعونا الان ننسى للحظة ان القوة يبرهن عليها بالانتصار فى خضم النضال، واننا لازلنا حتى الان بعيدون عن ان نكون قد حققنا انتصارا كاملا بعد. دعونا لانصدق الكلمات الجميلة، لأننا نعيش فى ازمة لازال الصراع المكشوف فيها جاريا، وتختبر فيها كل الكلمات والوعود على الفور فى تحققها العملى، بينما توظف الكلمات والبيانات والوعود عن الدستور لخداع الشعب، ولاضعاف قوته، وبعثرة صفوفه، واغواءه بأن يتخلى عن سلاحه. مامن شئ يمكن ان يكون اكثر زيفا من هذه الوعود والكلمات، ولنا كل الفخر فى ان نقول ان بروليتاريا روسيا قد نضجت من اجل الصراع ضد كل من القوة الوحشية، وضد الانحراف الليبرالى الدستورى، و يؤيد ماقول النداء الذى صاغه عمال السكك الحديدية الذى نشر عنه حديثا فى الصحافة الاجنبية (للاسف الاصل ليس لدينا). يقول النداء "اجمعوا الاسلحة يارفاق"، "نظموا انفسكم من اجل النضال بلا كلل، وبطاقة مضاعفة. فقط بتسليح وحشد صفوفنا سوف نكون قادرين على الدفاع عما كسبناه، ونحقق استجابة تامة لمطالبنا. سيأتى وقت نهض فيه مرة اخرى كرجل واحد فى نضال جديد اكثر عنادا من اجل الحرية التامة".

فى مثل هذا تتمثل ضماناتنا الوحيدة. مثل هذا هو الدستور الحقيقى لروسيا الحرة! وبالفعل، انظر الى بيان ١٧ اكتوبر وحقائق الحياة الروسية: هل يمكن لشيء ان يكون اكثر دلالة من التضاد بين هذا الاعتراف بالدستور على الورق من قبل القيصر، و"الدستور" الفعلى، اى التطبيق الفعلى لسلطة القيصر؟ فى مواجهة هذا، يقدم بيان القيصر وعودا لها طابعا دستوريا بجلاء. ولكنهم بينوا لنا ثمن هذه الوعود. لقد اعلن ان لشخصية الفرد حرمة لا تنتهك، مع ذلك فان هؤلاء الذين لا يوافقون هوى الاوتوقراطية يبقون فى السجون، او فى المنفى، او مبعدين. لقد اعلن عن حرية الاجتماع، مع ذلك فان الجامعات التى كانت اول من ابدع حرية الاجتماع فعليا فى روسيا، قد اغلقت، وسدت مداخلها بحراس من الشرطة الجنود. الصحافة حرة، ولهذا فان جريدة نوافيا جيزن (٢) المتحدثة باسم مصالح العمال، قد صودرت لأنها طبعت برنامج الاشتراكيين الديموقراطيين. ان اماكن وزراء المائة السود قد شغلها وزراء اعلنوا انهم يقفون فى صف حكم القانون، مع ذلك لازال المائة السود "شغالون" بدرجة اشد كثافة فى الشوارع بمساعدة الشرطة والجيش، ومواطنى روسيا الحرة الذين لا يروقون للبروقراطية يعدمون، او يضربون ويهرسون بحرية مع حصانة الافلات من العقوبة.

بمثل هذه النماذج الجلية امام اعيننا، يجب ان نكون عميانا، او اعمتنا الانانية الطبقية، حتى نعلق اى اهمية حقيقية جادة فى الوقت الراهن على ماذا كانت هناك وعود من الوزير (ويتى) بحق الاقتراع العام، او ماذا كان القيصر سوف يوقع بيانا يدعو فيه الجمعية "التأسيسية للانعقاد". حتى اذا جرت مثل هذه "التصرفات" فهى لن تقرر حصيلة الصراع، ولن يكون بمقدورها ان تخلق الحرية الفعلية للتحرير الانتخابى، او ان تضمن ان جمعية شعبية من الممثلين سوف يكون لها طابعا تأسيسيا حقيقيا. على الجمعية التأسيسية ان تعطى تجسيدا قانونيا وشكلا برلمانيا لبنية روسيا الجديدة، ولكن قبل ان يمكن تعزيز انتصار الجديد على القديم، ولاضفاء شكل مناسب على هذا الانتصار، فلا بد من احراز الانتصار الفعلى، لا بد من تحطيم قوة المؤسسات القديمة، ولا بد من كنس هذه الاخيرة، لا بد من تفويض الصرح القديم وتسويته بالارض، وتدمير اية امكانية لأى مقاومة جادة من جانب الشرطة وعصابتها.

حرية انتخابية تامة، وسلطة كاملة لجمعية تأسيسية يمكن ضمانهما فقط من خلال الانتصار التام للانتفاضة، والاطاحة بالحكم القيصري، على ان تحل محله حكومة ثورية مؤقتة. وعلى كل جهودنا ان نتوجه لتحقيق هذا الهدف، يجب ان يتصدر تنظيم واعداد الانتفاضة كل المهام على نحو مطلق. وبقدر ماتكون الهبة منتصرة فحسب وبقدر مايقود النصر الى التدمير الحقيقي للعدو – بقدر ذلك فحسب سوف تكون جمعية ممثلة الشعب شعبية ليس على الورق فحسب، وكذلك تأسيسية بالفعل لا بالاسم فقط.

فلتسقط كل انواع التضليل، والزيغ، وكل التعمية! لقد اعلنت الحرب، وقد اشتعل القتال، ومانعنايه الان ليس شيئاً سوى خمود او ركود مؤقت بين معركتين. ومامن وقوف في منتصف الطريق. ان حزب " البيض " هو خداع مطلق. وان من لايقف في صف الثورة فهو اذن من المائة السود. لسنا نحن فقط من يقول هذا. نحن لم نبدع مثل هذا الوصف. ان الاحجار التي لطختها الدماء تصرخ بهذه الكلمات في شوارع موسكو واوديسا، في كرونشتادت والقوقاز، في بولاندا وفي تومسك.

ان من لايقف في صف الثورة فهو اذن من المائة السود. وان من لايرغب في ان يضحى من اجل الحرية الروسية حتى لاتصبح هذه الحرية حرية الشرطة في ان تستخدم العنف، والاكراه على شهادات كاذبة، (والرشوة ب؟ المترجم) الفودكا، والهجمات الغادرة على اناس عزل من السلاح، يجب ان يسلم نفسه وان يتأهب للمعركة على الفور. لايد ان ننال الحرية الحقيقية، وليس وعودا بالحرية، ولامزق من الورق عن الحرية. لايتعين علينا ان ننجز فحسب خزي واذلالا لسلطة القيصر، ولا مجرد اعتراف بحقوق الشعب من هذه السلطة، وانما تدمير هذه السلطة، مادامت سلطة القيصر تعنى سلطة المائة السود على روسيا. وهذه النتيجة لاتخصنا ايضا. لقد جرى استخلاصها من وقائع الحياة ذاتها، انه الدرس الذى علمتنا اياه احداث الزمن. انه صوت هؤلاء الذين وقفوا جانبا حتى الان بعيدا عن اى مذهب ثورى ولم يجروا على اتخاذ خطوة واحدة حرة فى الشارع، وفى اجتماع، او فى البيت دون ان يعانون مخاطرة مريعة داهمة من ان يسحقوا، يعذبوا او يمزقوا الى قطع من قبل هذه العصابة او تلك من اتباع القيصر.

واخيرا، لقد اضطرت الثورة هذه " القوة الشعبية " على الخروج الى العلن – قوة اتباع القيصر. لقد كشفت للنظر العام على من يعتمد حكم القيصر، ومن هم بالفعل من يدعمون هذا النظام. واليك اياهم، هذه القوات الضارية من الشرطة، المدربون على الانضباط، الجنود نصف الانكباء، رجال الدين المسعورون، اصحاب الحوانيت الغلاظ، ورعاع المجتمع الرأسمالى الذين دوختهم الفودكا. ان هؤلاء هم من يسودون الان فى روسيا مع تستر او دعم تسعة اعشار مؤسساتنا الحكومية. هاهى ذى فندييه (٣) الروسية (الرجعية. المترجم) التى تشبه فندييه الفرنسية بنفس القدر الذى يشبه به القيصر نيقولا رومانوف المغامر نابليون. كما ان رجعتنا لم تقل كلمتها الاخيرة ايضا – لاتخطئوا اطلاقا بهذا الصدد ايها المواطنين. فهى ايضا قد بدأت للتو فى عرض قواها بدقة. وهى ايضا لديها احتياطيها من "المواد القابلة للاحتراق " التى تراكمت خلال قرون من الجهل، والاضطهاد، والقنانة، والشرطة كلية الجبروت. انها تقرن داخلها التخلف الاسيوى الصافى مع كل الملامح الكريهة للطرق الناعمة التى تستخدم لاستغلال وتسفيه هؤلاء الذين هم الاشد اضطهادا وتعذيبا بحضارة المدن الرأسمالية، وقد صغروهم حتى باتوا فى اوضاع اسوأ من اوضاع الحيوانات المفترسة. مثل هذه الرجعية لن تختفى استنادا لأى بيان يصدر عن القيصر، او عن مجلس القساوسة، او بناء على تغييرات فى المراتب العليا او الدنيا فى البيروقراطية. فهى لايمكن ان تحطم الا من قبل قوة بروتيتاريا منظمة ومستنيرة، لأن البروليتاريا وحدها، وهى المستغلة بحكم وضعها، جديرة باستنهاض كل من يليها، وتوقظ فيهم الاحساس انهم بشر ومواطنون، وتريهم خلايا جيش ثورى عات، عات فى مثله العليا، وفى انضباطه، وفى تنظيمه، وببطولته فى النضال، بطولة لاتستطيع ان تتصدى لها اى رجعية.

المصدر : مقتطف من مقال لينين، وعنوانه الاصلى * : بين معركتين. الاعمال الكاملة، المجلد التاسع، ص ص ٤٥٧ ٤٦٦، دار التقدم، موسكو ١٩٧٢. الطبعة الانجليزية